الاكتفاء الذاتي والبساطة في العيش

كلمة الناشر

تمتاز الأمة الإسلامية بمقومات فريدة تنحصر بها، فلا توجد في غيرها من الأمم الأخرى، مثل الفكر والعقيدة والتاريخ والأرض والماء والموارد والخيرات وغير ذلك، فهي متقومة بنفسها ومكتفية بما منحها الله عزوجل من ثروات، وليست بحاجة إلى ما عند الأمم الأخرى بقدر ما تحتاج الأمم الأخرى إلى ما عند الأمة الإسلامية.

وإن من أهم عوامل نجاح الأمم وتقدمها: هي مسألة الاكتفاء الذاتي، أي أن تكون الأمة معتمدة على نفسها في بناء نفسها، فلاتنظر إلى ما عند الآخرين وتهمل ما عندها. وهذا الأمر ينطبق تماماً على الأفراد أيضاً، فالفرد الناجح هو الذي يطبق قانون الاكتفاء الذاتي على نفسه.

ومن أبرز مظاهر الاكتفاء الذاتي ما يتجلى في مسألة الفكر. فالفكر الإسلامي فكر غني ومتنوع وشامل ويرسم

نظرة عامة عن الكون والحياة وما بعد الموت. ولقد ظل الغرب قروناً عديدة يقتات على الفكر الإسلامي وعلى كتب المفكرين الإسلاميين، وأقاموا بذلك صرح مجدهم . فقد شهد العديد من الغربيين بهذه المسألة:

يقول الكونت دوري ـ وكان وزير المعارف في فرنسا ـ: (بينما أهل أوروبا تائهون في بيداء الجهالة لا يرون الضوء إلا من سم الخياط، إذ سطع نور قوي من جانب الأمة الإسلامية من علوم وأدب وفلسفة وصناعات وعمل يد. وكانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وتونس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ومنها انتشر في الأمم، اغتنم منها أهل أوروبا في القرون الوسطى مكتشفات وصناعات وفنوناً وأقاموا أساس ممالكهم على شرائع الإسلام)[1].

ويقول آرثور ليونرد: (لولا مدنيّة الإسلام وعلومه وطرق تعاليمه المقدسة لما كنا نحن الغربيين بهذه الحالة الراقية، بل كنا لانزال في دور التوحش والهمجية)[2]، إلى غير ذلك مما شهد به علماؤهم ومفكروهم على طول التاريخ.

وقوة الفكر الإسلامي هذه وتنوعه وشموله بالإضافة

---

(1) الإسلام وشهادات الأغيار، لمؤلفه محمد الرضي الرضوي المطبوع ضمن كتابه (لماذا اخترنا الدين الإسلامي؟): ص213، مطبعة المعارف ـ بغداد، عام 1384هـ / 1964م.

(2) المصدر السابق: ص212.

إلى تعاليم الإسلام الحقة الفطرية والمفاهيم القرآنية النبيلة هي التي دفعت بالكثير من الغربيين إلى اعتناق الإسلام عن إيمان وعقيدة بأحقية هذا الدين، وأعلنوا صراحة بأن المستقبل لهذا الدين، وأن الإسلام هو دين المستقبل، وأنه الدين الوحيد الذي سيكون مقبولاً في أوروبا والغرب، وأنه لابد للغرب من اعتناق هذا الدين المجيد.

إن مسألة الاكتفاء الذاتي تنفي عن الأمم والأفراد مسألة التبعية للآخرين؛ لأنه مهما تكن قوياً ومتماسكاً فإذا ما احتجت إلى الآخرين فستكون أسيرهم ولو في أبسط الأشياء، وأنك مهما كنت مكتفياً عن الآخرين فستكون نظيرهم، وهذا ما قرره أمير المؤمنين الإمام علي A بقوله: Σاحتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأفضِل على من شئت تكن أميرهP[1].

واليوم أخطر ما تواجهه الأمة الإسلامية هي مسألة التبعية للغرب في كل شيء، إذ أصبحت الأمة عاجزة عن مواكبة ركب التحضر ومسايرة العالم، بالرغم من كل ما تملكه من مقومات التقدم والتحضر، وذلك نتيجة الحكام العملاء الذين تسلطوا على رقاب المسلمين وأذاقوهم ألواناً من الذل والقهر والكبت والعذاب، فساموا العباد وخربوا البلاد من أجل نزواتهم وشهواتهم العابرة،

(1) الإرشاد، للشيخ المفيد: ج1 ص303 ومن كلامه A في وصف الإنسان.

حتى جعلوا الفرد المسلم يشعر باليأس والإحباط لما يعانيه من أزمات تحل عليه وعلى أمته تباعاً.

لقد سعى الأعداء المستعمرون إلى قتل الروح الإسلامية لدى الفرد المسلم بكل ما أوتوا من قوة، ومحاربة الدين الإسلامي والعلماء ومطاردتهم والقضاء عليهم، ومن ثم التبشير بالدين المسيحي بعدما مهدوا الطريق إليه، وفي هذا المجال يقول أحد المبشرين في آخر مؤتمر عقده البروتستانت قبل الحرب العالمية:

(وعندي أنه يجب علينا قبل أن نبني النصرانية في قلوب المسلمين أن نهدم الإسلام من نفوسهم، حتى إذا أصبحوا غير مسلمين سهل علينا أو على من يأتي بعدنا أن يبنوا النصرانية في نفوسهم أو نفوس من يتربون على أيديهم. إن عملية الهدم أسهل من عملية البناء في كل شيء إلا في موضوعنا هذا؛ لأن هدم الإسلام من نفس المسلم معناه هدم الدين على العموم، وهي خطة مخالفة لما ندعو إليه لأنها خطة الإلحاد وإنكار للأديان جميعها، ولكن لا سبيل إلى تخليص المسلمين من الإسلام غير هذا السبيل، فانظروا ماذا أنتم فاعلون؟)[1].

والاكتفاء الذاتي وتقدم الأمة، كثيراً ما ركز عليه سماحة المرجع الراحل آية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي H في كتاباته ولقاءاته ومحاضراته

---

(1) لماذا اخترنا الدين الإسلامي؟: الغلاف الأخير.

مع مختلف الطبقات الذين كان يلتقي بهم، فكان 6 يؤكد على ضرورة النهوض بالإسلام والمسلمين من خلال التوعية الجماهيرية العامة ونشر الكتب، بالإضافة إلى تأسيس الأحزاب الحرة وبناء المؤسسات الثقافية والاجتماعية والسياسية، وكذلك العودة إلى المبادئ الإسلامية في الأخوة والأمة الواحدة وإطلاق الحريات الشاسعة التي منحها الإسلام للمسلمين واستمتاعهم بالمباحات وحيازتها مما يجعلهم خير أمة أخرجت للناس.

وفي هذا الكتاب (الاكتفاء الذاتي والبساطة في العيش) يلمس القارئ كيفية توجيه سماحة المرجع H أفراد الأمة الإسلامية إلى ضرورة الأخذ بمسألة الاكتفاء الذاتي حتى يتمكنوا من النهوض بواقعهم وانتشالها من الواقع المرير لتكون في مصاف الأمم الراقية.

ومؤسسة المجتبى للتحقيق والنشر، يسرها أن تضع هذا الكتاب القيم بين يدي شباب الأمة ومفكريها، مساهمةً منها في الأخذ بيد الأمة لما فيه خير الإسلام والمسلمين، والعودة بها إلى سالف عزها ومجدها.

نسأل الله تعالى أن يمن على الإمام الراحل بالمغفرة والرضوان، وأن ينفع بهذا الكتاب كما نفع بغيره من مؤلفاته، إنه سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين.

مؤسسة المجتبى للتحقيق والنشر

بيروت لبنان

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

قانون الاكتفاء والبساطة

من أهم أسباب التقدم في الأمم وكذلك الأفراد: الاكتفاء الذاتي والبساطة في العيش، وهذا يوجب سعادة الدارين، ولاتختص السعادة المترتبة عليه بالأمور الدنيوية فحسب.

قال الباري تبارك وتعالى: Πوَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُوراً % كُلاًّ نُّمِدُّ هؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراًO[1].

وهذه الآية المباركة تدل على أنه لا فرق في عطاء قانون الاكتفاء وقانون البساطة، بين المسلم والكافر، والمؤمن والمنافق، فمن أخذ بهذين القانونين تقدم في الحياة، ومن تركهما تأخر.

---

(1) سورة الإسراء: 19 - 20.

العمل طريق الاكتفاء

إن الاكتفاء الذاتي بحاجة إلى العمل المستمر، والقضاء على البطالة، وترك الكسل والضجر واليأس.

قال الإمام الرضا A: Σإن رجلا أتى النبي o ليسأله، فسمعه وهو o يقول: من سألنا أعطيناه، ومن استغنى أغناه الله. فانصرف ولم يسأله، ثم عاد إليه فسمع مثل مقالته فلم يسأله، حتى فعل ذلك ثلاثاً. فلما كان في اليوم الثالث مضى واستعار فأساً وصعد الجبل، فاحتطب وحمله إلى السوق فباعه بنصف صاع من شعير فأكله هو وعياله، ثم أدام على ذلك حتى جمع ما اشترى به فأساً، ثم اشترى بكرين وغلاماً وأيسر. فصار إلى النبي o فأخبره، فقال o: أليس قد قلنا: من سأل أعطيناه ومن استغنى أغناه اللهP[1].

وجاء في فقه الرضا A: Σوأروي عن العالم[2] A أنه قال: وقوا دينكم بالاستغناء بالله عن طلب الحوائج، واعلموا أنه من خضع لصاحب سلطان جائر أو لمخالف، طلباً لما في يديه من دنياه، أهمله الله ومقت عليه ووكله إليه، فإن هو غلب على شيء من دنياه نزع الله منه البركة، ولم ينفعه بشيء في حجته، ولغيره من أفعال

(1) بحار الأنوار: ج72 ص108 ب49 ح11.
(2) أي: عن الإمام موسى بن جعفر A.

البرP[1].

البساطة في العيش

البساطة في العيش توجب أن يركز الإنسان في حياته على الضروريات بعيداً عن الكماليات، وهي من أهم أسباب التقدم. أما إذا اشتغل الإنسان بالكماليات والمسائل الرفاهية وما أشبه، فإنه سيبتعد شيئاً فشيئاً عن الضروريات والأمور المهمة، وكثيراً ما يقع في الحرام ويرتكب الموبقات.

روي عن أبي عبد الله A أنه قال: Σإن وَلِيَّ علي A لايأكل إلا الحلال؛ لأن صاحبه A كان كذلك، وإن وليَّ عثمان لا يبالي أحلالاً أكل أو حراماً؛ لأن صاحبه كذلكP. قال: ثم عاد إلى ذكر علي A فقال: Σأما والذي ذهب بنفسه، ما أكل A من الدنيا حراماً قليلاً ولا كثيراً حتى فارقها، ولا عرض لـه أمران كلاهما لله طاعة إلا أخذ بأشدّهما على بدنه، ولا نزلت برسول الله o شديدة قط إلا وجّهه A فيها ثقةً به، ولا أطاق أحد من هذه الأمة عمل رسول الله o بعده غيره A، ولقد كان A يعمل عمل رجل كأنه ينظر إلى الجنة والنار، ولقد أعتق ألف مملوك من صلب ماله، كل ذلك تحفّى فيه يداه وتعرق جبينه التماس وجه الله عزوجل والخلاص من النار، وما كان قوته A إلا الخل والزيت، وحلواه التمر إذا وجده،

---

(1) فقه الرضا A : ص367 ب100.

وملبوسه الكرابيس، فإذا فضل عن ثيابه شيء دعا بالجلم[1] فجزهP[2].

وقال الإمام الصادق A: Σكان علي A أشبه الناس طعمة وسيرة برسول الله o، وكان يأكل الخبز والزيت ويطعم الناس الخبز واللحم ـ قال: ـ وكان علي A يستقي ويحتطب، وكانت فاطمة ∃ تطحن وتعجن وتخبز وترقع، وكانت من أحسن الناس وجهاً كأن وجنتيها وردتان، صلى الله عليها وعلى أبيها وبعلها وولدها الطاهرينP[3].

وهذه الروايات كلها تدل على البساطة في العيش وهي من مقومات الاكتفاء الذاتي.

---

(1) جَلَمَ الشيءَ يَجْلِمُه جَلْماً: قطعه. والجَلَمانِ: المِقْراضانِ، واحدهما جَلَمٌ للذي يُجَزُّ به. لسان العرب: ج12 ص102 مادة جلم.
(2) الكافي: ج 8 ص163 حديث الناس يوم القيامة ح173.
(3) الكافي: ج 8 ص165 حديث الناس يوم القيامة ح176.

من سمات النجاح

إذن هناك سمات للإنسان الناجح، والمجتمع المتقدم في الحياة، وهي أمور عدة، من أهمها أمران:

الأول: الاكتفاء الذاتي، وذلك بأن يسد احتياجاته الصغيرة والكبيرة ـ مهما أمكن ـ بنفسه، ولا يتوقع أو ينتظر من الغير إسداء العون إليه.

الثاني: أن تكون حياته قائمة على البساطة والزهد، بلا تكلف ولااهتمام بالكماليات والمسائل الرفاهية المختلفة والشكليات المعقدة، التي تهدر أوقاته وأمواله وعمره بالأمور التافهة مما يؤثر سلباً على الأصول المهمة في العيش، وذلك إقتداءً وأسوة بالأنبياء والأئمة والصالحين % حيث اتخذوا الزهد في الدنيا وما فيها.

مقومات الاكتفاء

ويرد هنا سؤال هو: كيف يمكن أن نقوي فينا واقع الاكتفاء الذاتي؟.

وماذا يجب أن نعمل كي نكتفي ذاتياً؟.

وفي الجواب نقول:

هناك مقدمتان أساسيتان تشكلان مبدأ الاكتفاء الذاتي في كل إنسان وكل مجتمع وكل أمة:

الأولى: ثقافة الاكتفاء، أي الفكر والتوعية التي تبين لنا أهمية الاكتفاء وضرورته في سبيل تقدم الفرد والأمة.

والثانية: التخطيط العملي للاكتفاء وم ثم تطبيق تلك البرامج والأفكار في الحياة اليومية والواقع المعاش، وهذه

المقدمة الثانية أصعب من الأولى.

خير أسوة

إن أفضل أسوة وأحسن مصداق عملي للبساطة والزهد في العيش نجده في حياة الإمام أمير المؤمنين علي وفاطمة الزهراء 3؛ حيث جعلا فراشهما جلد شاة بدلاً من الفراش والرياش، واستعملا الأواني الخزفية التي كان يستخدمها أبسط الناس حينذاك، بدلاً من القوارير الفضية، وكانا يستعملان التراب في الغسل والتنظيف، حتى في غسل الأطفال وتنظيفهم.

قال الإمام الصادق A:Σإن علياً A تزوج فاطمة ∃ على جرد بردٍ، ودرع، وفراش كان من إهاب كبشP[1].

وقال الإمام الباقر A: Σلما تزوج علي فاطمة 3 بسط البيت كثيباً، وكان فراشهما إهاب كبش، ومرفقهما محشوة ليفاً، ونصبوا عوداً يوضع عليه السقاء فستره بكساءP[2].

وعن الإمام الصادقA قال: Σأدخل رسول الله o فاطمة على علي A وسترها عباءة، وفرشها إهاب كبش،

---

(1) الكافي: ج5 ص377 باب ما تزوج عليه أمير المؤمنين A فاطمة ح1.

(2) بحار الأنوار: ج43 ص117 ب5 ح25.

ووسادتها أدم محشوة بمسدP[1].

وعنه A قال: Σإن فراش علي وفاطمة 3 كان سلخ كبش يقلبه فينام على صوفهP[2].

وعن جهاز أمير المؤمنين والصديقة الزهراء 3 يقول الإمام الصادق A: Σوسكب الدراهم في حجره، فأعطى منها قبضة كانت ثلاثة وستين أو ستة وستين إلى أم أيمن لمتاع البيت، وقبضة إلى أسماء بنت عميس للطيب، وقبضة إلى أم سلمة للطعام، وأنفذ عماراً وأبا بكر وبلالاً لابتياع ما يصلحها، وكان مما اشتروه قميص بسبعة دراهم، وخمار بأربعة دراهم، وقطيفة سوداء خيبرية، وسرير مزمل بشريط، وفراشان من خيش مصر حشو أحدهما ليف، وحشو الآخر من جز الغنم، وأربع مرافق من أدم الطائف حشوها إذخر، وستراً من صوف، وحصير هجري، ورحاء اليد، وسقاء من أدم، ومخضب من نحاس، وقعب للبن، وشن للماء، ومطهرة مزفتة، وجرة خضراء، وكيزان خزف ـ وفي رواية ـ ونطع من أدم، وعباء قطواني، وقربة ماءP[3].

---

(1) مكارم الأخلاق: ص131 الفصل العاشر في النجد والأثاث والفرش والتواضع فيها.

(2) مكارم الأخلاق: ص131 الفصل العاشر في النجد والأثاث والفرش والتواضع فيها.

(3) المناقب: ج3 ص352-353 فصل في تزويجها ∃.

من كتاب زهد أمير المؤمنين A عن عقيل بن عبد الرحمن الخولاني قال: (كانت عمتي تحت عقيل بن أبي طالب A فدخلت على علي A بالكوفة وهو جالس على بَرذَعة[1] حمار مبتلة! قالت: فدخلت على علي A امرأة له من بني تميم فقلت لها: ويحك إن بيتك ممتلئ متاعا وأمير المؤمنين A جالس على برذعة حمار مبتلة؟ فقالت: لا تلوميني فو الله ما يرى شيئاً ينكره إلا أخذه فطرحه في بيت المال)[2].

وقد كان كثير من الأصحاب المؤمنين يتبعون نفس هذا الأسلوب في الحياة الزوجية والاجتماعية، إقتداءً بهما 3، وعملاً بما جاء به رسول الله o.

ولذا نرى الأمة الأسلامية في عهد رسول الله 9 وعهد أمير المؤمنين A كانت من الأمم المتطورة والتي لا تحتاج إلى أي أمة أخرى في زراعتها وصناعتها وسلاحها وسائر ما يرتبط بحياتها.

وفي البيت العائلي

---

(1) البَرْذَعة: الحِلس الذي يلقى تحت الرحل، والجمع البراذع، وخص بعضهم به الحمار، وقيل هي برذعة وبردعة بالذال والدال. انظر لسان العرب مادة برذع.

(2) مكارم الأخلاق: ص132 الفصل العاشر في النجد والأثاث والفرش والتواضع فيها.

روي عن أمير المؤمنين A أنه قال لرجل من بني سعد:

∑ألا أحدثك عني وعن فاطمة ∃، أنها كانت عندي فاستقت بالقربة حتى أثر في صدرها، وطحنت بالرحى حتى مجلت يدها، وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت النار تحت القدر حتى دكنت ثيابها، فأصابها من ذلك ضر شديد.

فقلت لها: لو أتيتِ أباكِ فسألته خادماً يكفيك حرّ ما أنت فيه من هذا العمل؟.

فأتت النبي o فوجدت عنده حداثاً، فاستحيت فانصرفت.

فعلم النبي o أنها قد جاءت لحاجة، فغدا علينا ونحن في لحافنا، فقال: السلام عليكم، فسكتنا واستحيينا لمكاننا.

ثم قال: السلام عليكم، فسكتنا.

ثم قال: السلام عليكم، فخشينا إن لم نرد عليه أن ينصرف، وقد كان يفعل ذلك فيسلّم ثلاثاً فإن أذن له وإلا انصرف، فقلنا: وعليك السلام يا رسول الله، أدخل.

فدخل وجلس عند رؤوسنا، ثم فقال: يا فاطمة، ما كانت حاجتكِ أمس عند محمد.

قال: فخشيت إن لم نجبه أن يقوم، فأخرجتُ رأسي فقلت: أنا والله أخبرك يا رسول الله، إنها استقت بالقربة حتى أثر في صدرها، وجرت بالرحى حتى مجلت يداها، وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتى دكنت ثيابها، فقلت لها: لو أتيتِ أباكِ فسألته خادماً

يكفيك حر ما أنت فيه من هذا العمل.

قال: أفلا أعلمكما ما هو خير لكما من الخادم، إذا أخذتما منامكما فكبّرا أربعاً وثلاثين تكبيرة، وسبّحا ثلاثاً وثلاثين تسبيحة، واحمدا ثلاثاً وثلاثين تحميدة.

فأخرجت فاطمة ∃ رأسها، فقالت: رضيتُ عن الله وعن رسوله، رضيتُ عن الله ورسولهP[1].

وعن جابر الأنصاري قال: إنه رأى النبي o فاطمة ∃ وعليها كساء من أجلة الإبل، وهي تطحن بيديها وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله o فقال: Σيا بنتاه، تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة. فقالت: يا رسول الله، الحمد لله على نعمائه، والشكر لله على آلائه. فأنزل الله:Πوَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىO[2]P[3].

سيرة الأنبياء والأئمة %

وهكذا كان أنبياء الله (صلوات الله عليهم أجمعين) كما أخبر الصادق الأمين، حيث ورد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله o:Σوإن شئت نبأتك بأمر داود خليفة الله في الأرض كان لباسه الشعر وطعامه الشعيرP ـ إلى

---

(1) من لا يحضره الفقيه: ج1 ص320-321 باب وصف الصلاة من فاتحتها إلى خاتمتها ح947.

(2) سورة الضحى: 5.

(3) المناقب: ج3 ص342 فصل في سيرتها ∃.

أن قال: ـ Σوإن شئت نبأتك بأمر إبراهيم خليل الرحمن، كان لباسه الصوف وطعامه الشعير، وإن شئت نبأتك بأمر عيسى ابن مريم فهو العجب كان يقول: إدامي الجوع، وشعاري الخوف، ولباسي الصوفP[1].

وفي الحديث: دخل الإمام الصادق A الحمام، فقال له صاحب الحمام: نخليه لك؟.

فقال: Σلا، إن المؤمن خفيف المئونةP[2].

وهذه الخفة والبساطة كانت السمة الغالبة لحياة المسلمين في الصدر الأول للإسلام، وهي التي جعلتهم يتقدمون ذلك التقدم الباهر والسريع على سائر الأمم التي كانت معاصرة لبدء الإسلام، فاستطاعوا بذلك أن يفتحوا قسماً كبيراً من إمبراطورية الروم شمالاً، وبلاد فارس شرقاً، فضلاً عن بلاد النجاشي، والهند، وجزءً من الصين؛ لأن التقدم لا يحصل إلا بالهمة والنشاط والعمل، وهذه كلها لا تنسجم مع الحياة الناعمة والعيش المرفه الوثير، ولا تنسجم أيضا مع الكسل والضجر واليأس وما أشبه.

العمل الدءوب

أتذكر ذات مرة، ذهبنا مع جماعة من الأصدقاء

---

(1) مستدرك الوسائل: ج3 ص254 ب15 ح3517.
(2) من لا يحضره الفقيه: ج1 ص117 باب غسل يوم الجمعة ح 249.

لزيارة مرقد أولاد مسلم 3[1] في المسيب، وبعد أن وصلنا إلى هناك وأتممنا زيارتنا ذهبنا إلى جسر المسيب وكان الجو حاراً جداً. فرأينا العمال منهمكين في تصليح وترميم الجسر على الرغم من حرارة الجو اللاهبة، وعند الظهر حانت ساعة الاستراحة فتوقف جميع العمال عن العمل والتجئوا إلى الظل ليتناولوا غذاءهم ويحصلوا على قسط من الراحة. ولكن الأمر الذي لفت انتباهنا هو حالة المهندس الذي كان مسئولاً عن ترميم الجسر فإنه الوحيد الذي لم يرفع يده عن العمل، بل استمر تحت وهج الشمس المحرقة، يباشر فحص مواد التعمير ودراستها والتأكد من إتمام العمل فيها وعدم نقصه، ومع أن العرق كان يتصبب منه بغزارة لكنه لم يلتفت لذلك أبداً، ولم يسترح طوال الوقت حتى أنهى مهمته.

نعم، الذين يتقدمون في الحياة هم الذين لا يعرفون التعب، ويعملون ليل نهار بدون توقف، بالرغم من كل

---

(1) هما الشهيدان محمد وإبراهيم ابنا الشهيد مسلم بن عقيل A اللذان قتلا على يد أحد جلاوزة عبيد الله بن زياد، ومرقدهما يقع بالضواحي الغربية لمدينة المسيب التي تقع شمال مدينة كربلاء المقدسة حوالي (30 كم) على ضفاف نهر الفرات، وما زال مرقدهما عامراً يؤمه المحبون والموالون لأهل البيت %، وتعلو المرقد الشريف قبتان ترمزان إلى القبرين الشريفين وتجري الآن عمليات إكسائهما بالذهب، وأمام المرقد صحن واسع تحوطه مجموعة من الغرف يقطنها الزائرون الذين يرومون المبيت في جوار المرقد الشريف.

المشاكل والصعاب التي تعترض سبيلهم. قال أمير المؤمنين A: Σمن بذل جهد طاقته بلغ كنه إرادتهP[1].

وقال A: Σما أدرك المجد من فاته الجدP[2].

وقال A: Σما أقرب النجاح ممن عجل السراحP[3].

العمل في فترة الاستجمام

نقل أحد الأدباء[4] قصة ذكر فيها ما لمسه من اهتمام الغربيين بالوقت حتى في أوقات استجمامهم، فقال:

سافرت مرة إلى تونس للاستجمام والترفيه عن النفس، وفي نفس الفندق الذي حجزت فيه غرفة، كان يقيم أيضاً شخص غربي، وبعد أن تعرفت عليه وحادثته، قال لي: بأنه جاء إلى تونس بحثاً عن معالم التراث والآثار القديمة، وكان هذا الشخص جاداً في عمله، فيومياً كان يخرج ويحمل معه مقداراً من الماء والخبز ومسحاة

---

(1) غرر الحكم ودرر الكلم: ص444 ق6 ب4 ف2 فوائد السعي والجد ح10132.

(2) غرر الحكم ودرر الكلم: ص443 ق6 ب4 ف2 مدح السعي والجد والتحريض إليهما ح10120.

(3) غرر الحكم ودرر الكلم: ص444 ق6 ب4 ف2 فوائد السعي والجد ح10134.

(4) هو الكاتب المصري مصطفى محمود.

وفأساً، ويصطحب معه عاملاً، ويذهب إلى الصحارى المحيطة بتلك المنطقة، ويقوم بالحفر هنا وهناك، ويستخرج بعض الأحجار والآثار القديمة، ويأتي بها إلى الفندق ويجمعها.

وفي أحد الأيام، عندما كان خادم الفندق ينظف الغرف، ألقى بهذه الأحجار في سلة المهملات لجهله بها، فأخذتها سيارة القمامة والنفايات التابعة للبلدية، وألقتها خارج المدينة مع سائر النفايات التي جمعتها. وعندما أتى هذا الرجل السائح واطلع على حقيقة الأمر تأثر تأثراً كبيراً، وقال بحزن وأسف شديدين: قد ضاعت جهود شهرين كاملين، فإن هذه الأحجار كانت من أهم ما عثرت عليه من الآثار المهمة في هذه المنطقة وبسبب جهل الخادم ضاعت مني.

نعم، هؤلاء حتى في السياحة والاصطياف لا يضيعون الوقت بل يستغلونه بالبحث والتنقيب والتدقيق.

وكم رأينا من السياح والأجانب يأتون إلى كربلاء المقدسة من الأماكن البعيدة، فيقطعون المسافات الطويلة بواسطة الدراجات النارية مع بساطة الإمكانات، نراهم يقضون الأيام والليالي في الصحارى والمناطق القاحلة، بلا ماء أو غذاء، ويصل الأمر بهم في بعض الأحيان إلى أكل الحشائش والأعشاب الصحراوية، ويستريحون في المزارع والحدائق العامة، أو على قارعة الطريق، ثم يستأنفون رحلتهم وجولتهم من أجل رؤية بلاد العالم عن كثب، ودراسة أوضاعها من قرب، ومعرفة أساليب

معيشة الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم، وربما لأهداف أخرى كالتجسس وما أشبه، حيث إن بعض هؤلاء كان هدفهم التجسس وتمهيد السبيل للاستعمار، ولكن البعض الآخر منهم كان من السياح الحقيقيين الذين تهمهم قضايا المعرفة والاستطلاع.

ومهما كانت الأهداف فالكلام في الجد والعمل وعدم الضجر والكسل والملل.

المسلمون بين الأمس واليوم

قال تبارك وتعالى: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[1].

إن حياة الدنيا ونعيمها ينالها ـ عادة ـ الذين يعملون ويجتهدون بلا ملل أو كلل، فيتعبون أنفسهم بكل عزيمة، جاعلين البساطة وعدم التعقيد شعارهم، كما أنهم يهتمون بالأمور الحقيقية المهمة ويتركون الجزئيات غير المهمة.

بينما في الوقت الحاضر، نجد أن كثيراً من المسلمين يقضون أوقاتهم في طلب الراحة والدعة، والجاه والمنصب الفارغ من محتواه الحقيقي، فلا يفكرون في استقلالهم وحريتهم، بل وحتى لايهتمون بحياتهم الخاصة وتقدمهم الاجتماعي والعلمي.

ولو ألقينا نظرة فاحصة على تاريخ صدر الإسلام

---

(1) سورة الإسراء: 20.

وذلك التقدم الكبير الذي حصل للمسلمين، لرأينا أن من أسبابه بساطة الحياة وعدم التعقيد.

ومن الشواهد التي يمكن أن نستشهد بها على ذلك، ما ذكر من أحداث ووقائع إبان فتح المسلمين لإيران التي كانت تسمى بالإمبراطورية الساسانية [1]، فكتب الله للمسلمين النصر لما اتصفوا به من همة عالية وإخلاص في النية وزهد في الدنيا، وتصميمهم القوي على إنقاذ الناس من نير حكام الجور والأنظمة الفاسدة. حيث ذكر أنه في ذلك اليوم عندما تحرك المسلمون من أجل تخليص بلاد فارس من القهر والظلم الكسروي، وبعد مناوشات عديدة مع جيش الفرس عسكروا في مقابل عسكرهم، فأرسل (رستم) قائد جيش الفرس رسولاً يسألهم: لماذا أتيتم إلى قتالنا؟.

فأرسل المسلمون رجلاً منهم إلى رستم، يرتدي ملابس خلقة، ويحمل معه سيفاً بلا غمد، قد علقه بكتفه

---

(1) مملكة فارسية قامت على أنقاض الأرشاقيين الفرثيين، (224 - 651م) عاصمتها المدائن، انتهت على يد المسلمين حين فتحوا بلاد فارس، أسسها أردشير الذي استولى على طيسفون وقضى على ارطبان الخامس أخر ملك أرشاقي، أشهر ملوكها: شابور أو سابور الأول والثاني، وبهرام الخامس، وكسرى الأول والثاني، وبلغ من شهرة كسرى أنه سميت باسمه الإمبراطورية الكسروية، امتدت حدودها من أرمينيا إلى سورية ومصر حتى وصلوا إلى اليمن، حاربها الروم البيزنطيون، فتحها المسلمون وكان آخر ملوكها يزدجرد الثاني.

بحبل من خوص النخيل، فعندما شاهد رستم هيئة ولباس ذلك الرجل المسلم، قال له: أنتم الأعراب لم تكونوا تحاربون من أجل هدف، وإنما من أجل تحصيل حمل بعير من التمر أو الحنطة، وأنا الآن أعطيكم هذه الأشياء، فارفعوا أيديكم عن الحرب وعودوا إلى أوطانكم!.

فقال لـه المسلم: كلامك صحيح سابقاً؛ إذ كنا أذلاء وضعفاء، وكنا نحارب لغرض السلب والنهب، ونبذل في ذلك دماءنا وأعراضنا، أما الآن فقد أعزنا الله وشرفنا بالإسلام، وجعلنا نفكر في إنقاذ المستضعفين من نير المستكبرين والطغاة، ولأجل ذلك جئنا إلى هذه الديار، فنحن نحارب لا لأجل الدنيا بل لأجل إنقاذ الناس ونشر الإسلام.

فأخرج رستم سيفاً مرصعاً بالجواهر والأحجار النفيسة وقال له: هذا هدية لك بشرط أن تعود!.

فقال المسلم: كلا، فإن هذا السيف لا ينفعنا، نحن نريد هداية الناس، ثم أخرج سيفه وضرب به سيف رستم فتطايرت بعض المجوهرات منه، فتحير رستم من هذه الجرأة والشجاعة وتعجب كثيراً لموقفه الحازم[1].

نعم، هكذا كان يطمح المسلمون في نصرة الإسلام،

---

(1) انظر تاريخ ابن خلدون ق2: ج2 ص91 باب أخبار القادسية، وتاريخ الطبري: ج3 ص15 وما بعدها السنة الرابعة عشر. وفتوح البلدان: ج2 ص315 يوم القادسية.

وإعلاء كلمة الله، وهداية الناس إلى الحق بهمم عالية، وبأرواح متفانية في سبيل الله عزوجل، ولذلك وصلوا إلى أهدافهم وأوصلوا الإسلام إلى مختلف آفاق المعمورة.

وفي بعض التواريخ:

أنه ركب (رستم) غداة تلك الليلة وصعد مع النهر وصوب حتى وقف على القنطرة، وأرسل إلى زهرة فواقفه وعرض له بالصلح، وقال: كنتم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونحفظكم، ويقرر صنيعهم مع العرب، ويقول زهرة: ليس أمرنا بذلك وإنما طلبنا الآخرة، وقد كنا كما ذكرت إلى أن بعث الله فينا رسولاً دعانا إلى دين الحق فأجبناه وقال: قد سلطتكم على من لم يدن به وأنا منتقم بكم منهم وأجعل لكم الغلبة.

فقال رستم: وما هو دين الحق؟.

فقال: الشهادتان، وإخراج الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الله، وأنتم أخوان في ذلك.

فقال رستم: فإن أجبنا إلى هذا ترجعون؟.

فقال: إي والله.

فانصرف عنه رستم ودعا رجال فارس وذكر ذلك لهم، فأنفوا وأرسل إلى سعد قائد الجيش: أن ابعث لنا رجلاً نكلمه ويكلمنا.

فبعث إليهم ربعي بن عامر، وحبسوه على القنطرة حتى أعلموا رستم، فجلس على سرير من ذهب، وبسط النمارق والوسائد منسوجة بالذهب. وأقبل ربعي على فرسه وسيفه في خرقة ورمحه مشدودة بعصب، وقدم

حتى انتهى إلى البساط ووطئه بفرسه، ثم نزل وربطها بوسادتين شقهما وجعل الحبل فيهما، فلم يقبلوا ذلك وأظهروا التهاون، ثم أخذ عباءة بعيره فاشتملها، وأشاروا إليه بوضع سلاحه، فقال: لو أتيتكم فعلت كذا بأمركم وإنما دعوتموني.

ثم أقبل يتوكأ على رمحه ويقارب خطوه حتى أفسد ما مر عليه من البسط، ثم دنا من رستم وجلس على الأرض، وركز رمحه على البساط، وقال: إنا لا نقعد على زينتكم.

فقال له الترجمان: ما جاء بكم؟.

فقال: الله بعثنا لنخرج عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وأرسلنا بدينه إلى خلقه فمن قبله قبلنا منه وتركناه وأرضه، ومن أبى قاتلناه حتى نفيء إلى الجنة أو الظفر.

فقال رستم: هل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟.

قال: نعم، كم أحب إليك يوماً أو يومين؟.

قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا؟.

فقال: إن مما سن لنا رسول الله o أن لا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم واختر: إما الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزية فنقبل ونكف عنك وان احتجت إلينا نصرناك، أو المنابذة في الرابع إن تنبذ، وأنا كفيل بهذا عن أصحابي.

قال: أسيدهم أنت؟.

قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجيز بعضهم عن بعض، يجيز أدناهم على أعلاهم.

فخلا رستم برؤساء قومه، وقال: رأيتم كلاماً قط مثل كلام هذا الرجل؟.

فأروه الاستخفاف بشأنه وثيابه، فقال: ويحكم، إنما أنظر إلى الرأي والكلام والسيرة، والعرب تستخف اللباس وتصون الاحساب.

ثم أرسل إلى سعد: أن ابعث إلينا ذلك الرجل. فبعث إليهم حذيفة بن محصن، ففعل كما فعل الأول ولم ينزل عن فرسه، وتكلم وأجاب مثل الأول.

فقال له: ما قعد بالأول عنا؟.

فقال: أميرنا يعدل بيننا في الشدة والرخاء وهذه نوبتي.

فقال رستم: والمواعدة إلى متى؟.

فقال: إلى ثلاث من أمس.

وانصرف وحاص رستم بأصحابه يعجبهم من شأن القوم، وبعث في الغد عن آخر فجاءه المغيرة، فلما وصل إليهم وهم على زيهم وبسطهم على غلوة من مجلس رستم، فجاء المغيرة حتى جلس معه على سريره فأنزلوه.

فقال: لا أرى قوماً أسفه منا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضاً فظننتكم كذلك، وكان أحسن بكم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، مع أني لم آتكم وإنما دعوتموني، فقد علمت أنكم مغلوبون ولم يقم ملك على هذه السيرة.

فقالت السفلة: صدق والله العربي.

وقالت الأساطين: لقد رمانا بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل الله من يصغر أمر هذه الأمة.

ثم تكلم رستم فعظم من أمر فارس، بل من شأن فارس وسلطانهم، وصغر أمر العرب، وقال: كانت عيشتكم سيئة وكنتم تقصدونا في الجدب فنردكم بشيء من التمر والشعير، ولم يحملكم على ما صنعتم إلا ما بكم من الجهد، ونحن نعطي أميركم كسوة وبغلاً وألف درهم، وكل رجل منكم حمل تمر وتنصرفون، فلست اشتهي قتلكم.

فتكلم المغيرة وخطب فقال: أما الذي وصفتنا به من سوء الحال والضيق والاختلاف فنعرفه ولا ننكره، والدنيا دول والشدة بعدها الرخاء، ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم قليلاً عما أوتيتم، وقد أسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال، وإن الله بعث فينا رسولاً.

ثم ذكر مثل ما تقدم إلى التخيير بين الإسلام أو الجزية أو القتال وقال: يدخل من قُتل منا الجنة، ويظفر من بقى منا بكم.

فاستشاط رستم غضباً وحلف أن لا يقع الصلح أبداً حتى أقتلكم أجمعين، وانصرف المغيرة.

وخلا رستم بأهل فارس وعرض عليهم مصالحة القوم، وحذرهم عاقبة حربهم فلجوا، وبعث إليه سعد يعرض عليه الإسلام ويرغب، فأجابه بمثل ما كان يقول لأولئك من الامتنان على العرب والتعريض بالمطامع،

فلم يتفق شيء من رأيهم [1].

(1) تاريخ ابن خلدون ق2 :ج2 ص94-96 أخبار القادسية.

ابن سينا

يمر حوالي ألف سنة على وفاة ابن سينا[1] وهو من

(1) الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا (370- 428هـ) الحسين بن عبد الله بن سينا، الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات. ذهب إلى المكتب وعمره خمس سنين، فأكمل الأصول العربية والقواعد الأدبية وله من العمر عشر سنين، فتتلمذ عند محمود مساح في علوم الحساب والهندسة والجبر والمقابلة بإشارة والده، قرأ المنطق من أقسام مسائل الحكمة والإقليدس والمجسطي على الحكيم عبد الله بابلي في بخارى، وبعد ذلك اشتغل في الحكمة الطبيعية والإلهية، ففتحت لـه أبواب العلوم. ثم اشتغل بتحصيل علم الطب، فترقى في زمان قليل، فصار وحيداً في ذلك الفن، ومع ذلك كان يدرس مسائل الفقه والأصول. فلما بلغ سن الثامنة عشر فرغ من جميع العلوم المنطقية والرياضية والطبيعية، فمال إلى علم ما بعد الطبيعة، فاشتغل بمطالعة ما كتب في ذلك العلم. صنف نحو مائة كتاب بين مطول ومختصر، ونظم الشعر الفلسفي الجيد، ودرس اللغة مدة طويلة حتى بارى كبار اللغويين. أشهر كتبه (القانون) في الطب، يسميه علماء الفرنج (Canonmedicina) بقي معولاً عليه في علم الطب ستة قرون، ترجمه الفرنج إلى لغاتهم وكانوا يتدارسونه في مدارسهم، وطبعوه بالعربية في روما، ويسمون ابن سينا: (Avicenna) وله عندهم مكانة رفيعة. ومن تصانيفه: (المعاد) رسالة في الحكمة، و(الشفاء) في الحكمة، و(السياسة)، و(أسرار الحكمة المشرقية)، وأرجوزة في (المنطق)، ورسالة (حي بن يقظان)، و(أسباب حدوث الحروف)، و(الإشارات) و(الطير)، و(أسرار الصلاة). قيل: كان الطب معدوماً فأوجده بقراط، وكان ميتاً فأحياه جالينوس، وكان متفرقاً فجمعه الرازي، وكان ناقصاً فأكمله ابن سينا.

كبار علماء المسلمين وكان فريداً في زمانه، وقد كتب كتباً قيمة وكثيرة في الطب وباقي العلوم، فإن كتبه الغنية ـ حتى في هذا الزمان ـ موضع إقبال أهل العلم والمعرفة في شتى الفنون، مع أنه لم يكن من ورائه مال أو دولة تدعمه، وما ذلك إلا لأنه كان راسخ العزم في العمل المتواصل، وكان صاحب همة عالية من أجل التحقيق والتدقيق، وبذلك استطاع أن يحتل موقعاً رائعاً في التأريخ الإسلامي والإنساني.

يذكر ابن سينا في قصة حياته: إنه كان يقرأ ويراجع بعض المطالب أربعين مرة حتى يفهمها ويدرك مغزاها، وهذا الاستمرار عمل صعب جداً ولا يستطيع كل أحد أن يفعله، ولذلك نراه قد تقدم وترقى وقدّم للناس، بينما كثير من العلماء والمحققين في العصر الحاضر لايتوصلون إلى ما توصل إليه ابن سينا.

ينقل القفطي في كتاب تاريخ الحكماء[1] عن ابن سينا قوله:

ثم عدت إلى العلم الإلهي وقرأت كتاب (ما بعد الطبيعة)، فما كنت أفهم ما فيه، والتبس عليَّ غرض واضعه، حتى أعدت قراءته أربعين مرة، وصار لي محفوظاً وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به، وأيست من نفسي، وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه. فإذا أنا

(1) تاريخ الحكماء: ص 415-416.

في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين وبيد دلال مجلد ينادي عليه، فعرضه عليَّ فرددته رد متبرم معتقد أن لا فائدة في هذا العلم. فقال لي: اشتر مني هذا، فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم، وصاحبه محتاج إلى ثمنه. فاشتريته فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض ما بعد الطبيعة. فرجعت إلى بيتي وأسرعت قراءته، فانفتح عليَّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه قد صار لي على ظهر القلب، وفرحت بذلك وتصدقت ثاني يومه بشيء كثير على الفقراء شكرا لله تعالى[1].

وينقل عن ابن سينا أنه قال: إن مما كلفني استادي في الأدب حفظ ديوان ابن الرومي، فحفظته في ستة أيام ونصف يوم[2].

وقيل: إن أحداً من فحول علماء أصفهان المسمى بأبي منصور كان حاضراً في مجلس السلطان علاء الدولة، فبلغ الكلام إلى علم اللغة، فتصرف الشيخ ـ أي ابن سينا ـ فيه، فقال له أبو منصور: أنت حكيم وليس لك خبر وإطلاع باللغة، وهي محتاجة إلى السماع ولم تتبع في متن اللغة.

فاستنكف الشيخ من هذا الكلام، فواظب اللغة

---

(1) منية المريد، للشهيد الثاني: ص342 الهامش رقم 4.
(2) راجع الغدير، للعلامة الشيخ الأميني:ج3 ص30 الشاعر ابن الرومي.

والمطالعة فيها ودرسها فضبطها في قليل من الزمان، فأنشد قصائد ثلاثة ورسائل كذلك، وأدرج فيها الألفاظ الغريبة واللغات العجيبة وسودها في قراطيس عتيقة وطلب من علاء الدولة مجمعاً بين أبي منصور وبينه، وقال له: إني أريد الإطلاع على مضامين هذه الأوراق وترجمتها.

فعمل بمقتضى سؤاله، فسئل من أبي منصور معاني تلك الألفاظ في الأوراق، فمهما اختفى عليه معنى لغة منها بينها الشيخ، وكان يقول: إنها في الكتاب مسطور ومعناها كذا وكذا.

فالتفت أبو منصور من مزيد الكياسة والفطانة أن هذه القصائد والرسائل من مؤلفات الشيخ، فلا جرم قد قدم بالاعتذار وأقر بفضيلة الشيخ وتقدمه في كل العلوم.

وقد نقل أنه قد كتب رسالة في المنطق، فاتفق وقوعها في شيراز بيد علمائها، وقد اشتبه عليهم كثير من مواضعها لم ينكشف، فثبتوا موارد الاشتباه في جزء وأعطوه بيد من يحمله إلى الشيخ، وينحل عقدها ويرتفع الحجاب والستور عن وجوهها، فوصل إلى أصفهان عند غروب الشمس في فصل الحرارة، فلاقاه وأخذ الجزء.

فلما فرغ من صلاة العشاء الآخرة اشتغل بمطالعته وتدوين جوابه، وقد كتب في خمسة أجزاء كل جزء عشرة أوراق، ثم نام وصلى صلاة الصبح أداءً على

قانونه وطريقته، وأعطى الأجزاء بيد أبي القاسم وقال: استعجلت في الجواب، فتعجب أبو القاسم[1].

قال ابن سينا: ورغبت في الطب وبرزت فيه وقرؤوا عليَّ، وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه، وأناظر ولي ست عشرة سنة. ثم قرأت جميع الفلسفة، وكنت كلما أتحير في مسألة، أو لم أظفر بالحد الأوسط في قياس، ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل حتى فتح لي المنغلق منه. وكنت أسهر ... ـ إلى أن قال ـ حتى استحكم معي جميع العلوم، وقرأت الكتاب (ما بعد الطبيعة)، فأشكل عليَّ حتى أعدت قراءته أربعين مرة، فحفظته ولا أفهمه، فأيست. ثم وقع لي مجلد لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب (ما بعد الحكمة الطبيعية)، ففتح عليَّ أغراض الكتب ففرحت وتصدقت بشيء كثير.

واتفق لسلطان بخارى نوح مرض صعب، فأُحضرت مع الأطباء وشاركتهم في مداواته، فسألت إذناً في نظر خزانة كتبه، فدخلت فإذا كتب لا تحصى في كل فن فظفرت بفوائد ـ إلى أن قال ـ فلما بلغت ثمانية عشر عاماً فرغت من هذه العلوم كلها، وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ، ولكنه معي اليوم أنضج، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لي شيء، وصنفت (المجموع) فأتيت فيه على علوم، وسألني

(1) طرائف المقال للسيد علي البروجردي: ج2 ص493-494 ترجمة الشيخ ابن سينا.

جارنا وكان مائلاً إلى الفقه والتفسير والزهد، فصنفت له (الحاصل والمحصول) في عشرين مجلدة، ثم تقلدت شيئاً من أعمال السلطان، وكنت بزي الفقهاء إذ ذاك بطيلسان محنك، ثم انتقلت إلى نسا ثم أبا ورد وطوس وجاجرم ثم إلى جرجان[1].

قال ابن سينا: لما بلغت التميز سلمني أبي إلى معلم القرآن ثم إلى معلم الأدب، فكان كل شيء قرأ الصبيان على الأديب احفظها، والذي كلفني أُستاذي كتاب (الصفات) و(غريب المصنف) ثم (أدب الكاتب) ثم (إصلاح المنطق) ثم (كتاب العين) ثم (شعر الحماسة) ثم (ديوان ابن الرومي) ثم (تصريف المازني) ثم (نحو سيبويه) فحفظت تلك الكتب في سنة ونصف سنة، ولولا تعويق الأستاذ لحفظتها بدون ذلك، وهذا مع حفظي وظائف الصبيان في المكتب، فلما بلغت عشر سنين كان في بخارى يتعجبون مني، ثم شرعت في الفقه فلما بلغت اثنتي عشرة سنة كنت أفتي في بخارى على مذهب أبي حنيفة، ثم شرعت في علم الطب، وصنفت (القانون) وأنا ابن ست عشرة سنة، فمرض نوح بن منصور الساماني، فجمعوا الأطباء لمعالجته فجمعوني معهم، فرأوا معالجتي خيراً من معالجات كلهم فصلح على يدي. فسألته أن يوصي خازن كتبه أن يعيرني كل كتاب طلبت ففعل،

(1) سير أعلام النبلاء للذهبي: ج17 ص531-533 ابن سينا.

فرأيت في خزانته كتب الحكمة من تصانيف أبي نصر طرخان الفارابي، فاشتغلت بتحصيل الحكمة ليلاً ونهاراً حتى حصلتها، فلما انتهى عمري إلى أربع وعشرين كنت أفكر في نفسي ما كان شيء من العلوم أني لا اعرفه[1].

وهذه نماذج من حياة الذين عملوا وأتعبوا أنفسهم وسهروا الليالي طلباً لما أرادوه فوصلوا إليه.

(1) الكنى والألقاب للمحدث الشيخ عباس القمي: ج1 ص320-321 ابن سينا.

طعم الحياة

إن البساطة في العيش هي مسؤولية الحكام أولاً، فإن من تولى أمور الناس عليه أن يعيش بحال أضعفهم، وهكذا كان رسول الله o وأمير المؤمنين A في حكومتيهما العادلة.

جاء في نهج البلاغة: من كتاب لأمير المؤمنين A إلى عثمان بن حنيف الأنصاري وكان عامله على البصرة، وقد بلغه: أنه دُعي إلى وليمة قوم من أهلها، فمضى إليها، فقال له:

Σأَمَّا بَعْدُ يَا ابْنَ حُنَيْفٍ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ، فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ.

فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ، أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ، أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ، فَوَ اللَّهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلاَ ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلاَ أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً، وَلاَ حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً، وَلاَ أَخَذْتُ مِنْهُ إِلاَ كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ، وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ

عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ[1]. بَلَى كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ[2] مِنْ كُلِّ مَا

(1) أي مرة، مقر الشيء بالكسر، أي صار مراً. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج16 ص207 عثمان بن حنيف.

(2) فدك: منطقة زراعية خصبة ذات حوائط عامرة سبعة، تبعد من خيبر بنحو خمسين كيلومتراً, وعن المدينة المنورة بما يقرب من (140) كيلومتراً وكان يسكنها اليهود. فعندما فرغ رسول الله o من خيبر عقد لواءً ثم التفت o إلى علي A وقال: Σيا علي، قم إليه فخذهP. فقام علي A إلى اللواء فأخذه، فبعثه رسول الله o به إلى فدك. وكان أهل فدك قد سمعوا بما دمر الله على أهل خيبر وبمسير علي A فاتح خيبر إليهم، فامتلأت قلوبهم من ذلك خوفاً ورعباً، فأرسلوا إلى رسول الله o قبل وصول علي A إليهم يصالحونه على فدك، ويسألونه أن يسترهم بأثواب، ويحقن دماءهم، ويتركوا له أرضهم وأموالهم، وكان الذي مشى بينهم وبين رسول الله o في ذلك محيصة بن مسعود أحد بني حارثة، فصالحهم رسول الله o على أن يحقن دماءهم. فكانت حوائط فدك ملكاً لرسول الله o خاصة خالصة، لأنها لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، فنزل جبرئيل عليه وقال: Σيا رسول الله، إن الله عزوجل يأمرك أن تؤتي ذا القربى حقهP. قال o: Σيا جبرئيل، ومن قرباي وما حقه؟P. قال جبرئيل: Σفاطمة ∃ فاعطها حوائط فدك وما لله ولرسول الله فيهاP. فدعا رسول الله o فاطمة ∃ وأعطى بأمر من الله تعالى فدكاً إليها ∃ نحلة لها وبلغة لابنيها، وملكاً خاصاً لها، وبقيت في ملكها وبيدها ∃ في حياة الرسول o حتى انتزعها منها أبو بكر. انظر بحار الأنوار: ج21 ص22 ب22 ضمن ح17.

ولما ورد أبو الحسن موسى بن جعفر A على المهدي ـ العباسي ـ رآه يرد المظالم فقال: Σما بال مظلمتنا لا ترد؟P. فقال لـه: و ما ←

أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللَّهُ، وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَغَيْرِ فَدَكٍ، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ، تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لَأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ،

→

ذاك يا أبا الحسن؟. قال: Σإن الله تبارك و تعالى لما فتح على نبيه o فدكاً وما والاها لم يوجف عليه بخيلٍ ولا ركابٍ، فأنزل الله على نبيه o: Πوَآتِ ذَا الْقُرْبَىَ حَقَّهُO ـ سورة الإسراء: 26- فلم يدر رسول الله o من هم، فراجع في ذلك جبرئيل، وراجع جبرئيل A ربه فأوحى الله إليه: أن ادفع فدكاً إلى فاطمة ∃، فدعاها رسول الله o فقال لها: يا فاطمة، إن الله أمرني أن أدفع إليكِ فدكاً. فقالت: قد قبلت يا رسول الله من الله ومنك. فلم يزل وكلاؤها فيها حياة رسول الله o، فلما ولي أبو بكرٍ أخرج عنها وكلاءها، فأتته فسألته أن يردها عليها فقال لها: ائتيني بأسود أو أحمر يشهد لكِ بذلك. فجاءت بأمير المؤمنين A وأم أيمن فشهدا لها فكتب لها بترك التعرض فخرجت والكتاب معها، فلقيها عمر فقال: ما هذا معكِ يا بنت محمدٍ؟. قالت: كتابٌ كتبه لي ابن أبي قحافة. قال: أرينيه؟. فأبت فانتزعه من يدها، ونظر فيه ثم تفل فيه ومحاه وخرقه فقال لها: هذا لم يوجف عليه أبوكِ بخيلٍ ولا ركابٍ، فضعي الحبال في رقابناP. فقال له المهدي: يا أبا الحسن حدها لي؟. فقال: Σحد منها جبل أحدٍ، وحد منها عريش مصر، وحد منها سيف البحر، وحد منها دومة الجندلP. فقال له: كل هذا؟!. قال: Σنعم يا أمير هذا كله، إن هذا كله مما لم يوجف على أهله رسول الله o بخيلٍ ولا ركابٍP. فقال: كثيرٌ وأنظر فيه. الكافي: ج1 ص534 باب الفيء والأنفال وتفسير الخمس ح5.

وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى، لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ.

وَلَوْ شِئْتُ لاَهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ، وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لاَ طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلاَ عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ، أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى، وَأَكْبَادٌ حَرَّى، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ
وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلاَ أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ، فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عَلَفُهَا، أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلاَفِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرَكَ سُدًى، أَوْ أُهْمَلَ عَابِثاً، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلاَلَةِ، أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ.

وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الأَقْرَانِ، وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ، أَلاَ وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً، وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ

أَرَقُّ جُلُوداً، وَالنَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَى وَقُوداً، وَأَبْطَأُ خُمُوداً، وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ، وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ، وَاللَّهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا، وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ.

إلى أن قال A: إِلَيْكِ عَنِّي يَا دُنْيَا، فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ، قَدِ انْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ، وَأَفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِكِ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكِ.

أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ؟.

أَيْنَ الأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ؟.

فَهَا هُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ.

وَاللَّهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِيّاً، وَقَالَباً حِسِّيّاً، لاَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ اللَّهِ فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالأَمَانِيِّ، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِي الْمَهَاوِي، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَى التَّلَفِ، وَأَوْرَدْتِهِمْ مَوَارِدَ الْبَلاَءِ، إِذْ لاَ وِرْدَ وَلاَ صَدَرَ. هَيْهَاتَ مَنْ وَطِئَ دَحْضَكِ زَلِقَ، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ، وَمَنِ ازْوَرَّ عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ، وَالسَّالِمُ مِنْكِ لاَ يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ، وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ انْسِلاَخُهُ. اعْزُبِي عَنِّي فَوَ اللَّهِ لاَ أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِي، وَلاَ أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِي.

وَايْمُ اللَّهِ، يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهِشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً، وَلَأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ نَضَبَ مَعِينُهَا، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا، أَ تَمْتَلِئُ السَّائِمَةُ[1] مِنْ رِعْيِهِا فَتَبْرُكَ! وَتَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ! وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعَ، قَرَّتْ إِذاً عَيْنُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ، وَالسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ.

طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمْضَهَا، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكَرَى عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا، فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ، وَهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ، ∏أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَO[2].

فَاتَّقِ اللَّهَ يَا ابْنَ حُنَيْفٍ، وَلْتَكْفُفْ أَقْرَاصُكَ لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَP[3].

---

(1) السائمة: الأنعام التي تسرح.
(2) سورة المجادلة: 22.
(3) نهج البلاغة، الرسائل: 45 من كتاب لـه A إلى عثمان بن حنيف ←

نعم، إن طعم الحياة ولذتها والمعاني الحقيقية فيها تكمن في خوض الصعوبات في سبيل الله، وفي تحمل المشاكل لوجه الله.

وجني الثمار المفيدة تتم عبر الاكتفاء الذاتي والبساطة في العيش، وليس عبر الرفل بالنعيم والراحة.

نعم، على الإنسان أن يجعل اللذة في سبيل الوصول إلى الهدف الأسمى، لا لأجل صرف الوقت في الملذات والهوى وملء البطن والتمتع والأمور التافهة.

وهناك بعض القصص من حياتنا المعاصرة تدل على الفرق بين من يعمل ومن لا يعمل.

→

الأنصاري وكان عامله على البصرة.

الفرق بين الشخصيتين

سافر اثنان من طلبة العلوم الدينية لأجل التبليغ خارج بلدتهم، وكان أحدهما يمتاز بروحية عالية، وقد ربى نفسه على البساطة في العيش والاكتفاء الذاتي في أموره مهما أمكن؛ لذلك فقد أحرز نجاحاً واسعاً في مهمة التبليغ، وكان يشعر براحة نفسية كبيرة؛ لأنه قد قام بواجبه وأوصل رسالته ونال هدفه، فكان يتحدث عن تجربته الناجحة وما أنجزه بروحية عالية وسعادة بالغة، وكان على أمل حصول الثواب الإلهي الذي وفق لأسبابه في مجال التبليغ وهداية الناس ونشر المذهب الحق، رغم الصعاب التي كان لاقاها والمشاق التي تحملها.

أما الثاني، حيث لم يكن قد ربى نفسه على روح البساطة والاكتفاء، وكان يتصور بأنه متى ما يباشر في التبليغ فإن الناس سوف يهرعون إليه، ويستقبلونه بحرارة فائقة ويلبون جميع حوائجه ويقضونها له؛ لذلك عندما صدمه الواقع وخالف توقعاته عاد من التبليغ وهو ساخط على الناس غير راض عنهم. فكان أينما يجلس يبدأ ببث آلامه وهمومه، ويقول: نحن في آخر الزمان، فالناس لاينفعهم التبليغ والإرشاد، إلى غير ذلك من الأعذار والعلل الضعيفة.

إن الفرق بين هذين الشخصين، إنما هو في الشخصية: فإن أحدهما كان قد ربى نفسه وبناها على الاكتفاء الذاتي والبساطة في العيش، ووطنها على العمل الجاد والمثابرة والمبادرة في كل شيء مما يرضي الرب

عزوجل، بينما الثاني ترك نفسه ولم يربها على الاكتفاء الذاتي والبساطة، بل رباها على الاتكال على الغير، والانتظار من الجميع ليهبوا في خدمته وإنجاز أعماله ووظائفه.

الحسينية العامرة

وفي قصة أخرى، سُلمت إدارة حسينية من الحسينيات إلى أحد الأشخاص، وذلك للإشراف عليها وإقامة البرامج والأنشطة الدينية فيها.

فعندما حل شهر محرم الحرام وباشر بإقامة المجالس فيها، لوحظ الجمود والرتابة فيها وعدم الإقبال والتفاعل من قبل الناس على هذه الحسينية على عكس سائر الحسينيات، وفي النهاية آلت إدارة هذا الفرد إلى الفشل، ولم يستطع أن يقدم شيئاً في هذا المجال، ولا أن يجمع الناس حوله لإنجاح الحسينية.

عند ذلك أوكلت مهام هذه الحسينية إلى فرد آخر لإدارتها، فأجاد في إدارتها وأقام فيها مأتماً ضخماً، بالرغم من أنه لم يكن من أهل العلم، فسألته عن سبب هذا التجمع الغفير والبرنامج الضخم في جميع المجالات من إقامة العزاء والطبخ وما أشبه، فقال: إنني استقبل كل من يدخل الحسينية بحرارة وأودعه بحفاوة وتقدير، وأقول له: أنت جئت إلى هذا المكان من أجل الإمام الحسين A فماذا تهدي وتقدم للإمامA؟. فأحدهم يهدي شاة والآخر أرزاً، والثالث سمناً، وهكذا، وكان هذا الأسلوب باعثاً شديداً على قوة المجالس واستمرارها في هذه الحسينية.

ونفس هذا الفرد عند ما كان في كربلاء المقدسة أوكلت إليه إدارة مسجد خلف صحن مولانا أبي الفضل العباس A، وكان خرباً ومفروشاً بالحصير. فعندما تسلمه هذا الفرد، عمد أولاً إلى تعميره تعميراً حسناً، ثم فرشه بفراش جيد، وأقام فيه صلاة الجماعة، وأعاد للمسجد رونقه المادي والمعنوي.

وكان السبب في هذا النشاط هو الروح الكبيرة والهمة العالية التي امتاز بها، مضافاً إلى الاعتماد على المواهب الذاتية الكامنة في نفسه وفي نفوس إخوانه المؤمنين من جهة أخرى.

الشكوى دائماً

وهناك أفراد خاملون وقاعدون، تراهم يشكون دائماً وفي كل الأحوال، ويبثون شكواهم لهذا وذاك باستمرار، ومن دون سبب أو داعٍ مقبول، حتى أن أحدهم عندما كنت أسأله عن أحواله وصحته كان يشتكي ويتألم دائماً، حتى صار بث الهم والشكوى من سماته. فكان كثير الشكوى، وعندما لم تكن لديه أية مشكلة كان يشتكي حتى من الخدشة!، ففي مرة سألته عن حاله؟. فقال: في الليلة الماضية آذتني ذبابة!!

ولذلك كان أصدقاؤه يتحاشون السؤال عن أحواله.. لأن جوابه كان الشكوى والتذمر من كل شيء للحالة النفسية التي يحملها.

استثمار الوقت

ذكروا في أحوال المحدث القمي[1] 6 صاحب كتاب (مفاتيح الجنان) والكتب الأخرى المفيدة:

إن أحد المؤمنين كان قادماً ذات يوم من مدينة آراك إلى مدينة قم المقدسة، وفي الطريق بين المدينتين يرى الشيخ عباس القمي 6 وحيداً في الصحراء، جالساً على جانب الطريق، وهو منهمك في الكتابة والتأليف، فتعجب من ذلك، وأوقف سيارته عنده وسأله عن سبب وجوده في الصحراء؟!

فقال: إن السيارة التي كانت تقلني قد تعطلت في منتصف الطريق، وقال سائق السيارة: بأن حصول هذه النكبة وعطب السيارة إنما لحقنا بسببك!، ثم أنزلني من السيارة وتركني كما ترى، وذهبوا بعدما أصلحوا السيارة، والآن مضى على تواجدي هنا ساعتان تقريباً، ومن أجل الاستفادة من الوقت وعدم هدره أخذت بالكتابة والتأليف!

يقول هذا الشخص: فطلبت من الشيخ أن أوصله إلى

---

(1) هو الشيخ عباس محمد رضا القمي، ولد في مدينة قم المقدسة عام 1294هـ، عالم عامل، ثقة عدل متتبع، بحاثة عصره، أمين مهذب، زاهد عابد، صاحب المؤلفات المفيدة، تتلمذ على العلامة الشيخ حسين النوري صاحب (مستدرك الوسائل)، من مؤلفاته: (هداية الأحباب)، و(الفوائد الرضوية) و(الكنى والألقاب) و(مفاتيح الجنان) في الأدعية والزيارات، توفي ε في النجف الأشرف عام 1359هـ.

قم المقدسة بسيارتي، فلم يمانع 6.

نعم، هكذا يجب أن يُستثمر الوقت ويُستفاد من فرص العمر في العمل حتى يتحقق الاكتفاء الذاتي والبناء والتقدم، كما يلزم التحلي بالبساطة في العيش والزهد في الدنيا، وبذلك يمكن التقدم في الحياة الشخصية والاجتماعية.

Σ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَصُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ، وَلاَ تَبْتَذِلْ جَاهِي بِالإِقْتَارِ، فَأَسْتَرْزِقَ أَهْلَ رِزْقِكَ، وَأَسْتَعْطِيَ شِرَارَ خَلْقِكَ، فَأُفْتَتَنَ بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي، وَأُبْتَلَى بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي، وَأَنْتَ مِنْ دُونِهِمْ وَلِيُّ الإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِP[1].

من هدي القرآن الحكيم

حقيقة الزهد:

قال تعالى:

Πلِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْO[2].

وقال سبحانه: Πلِّكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَآ آتَاكُمْO[3].

---

(1) الصحيفة السجادية: دعاء رقم 20 وكان من دعائه A في مكارم الأخلا ق ومرضي الأفعال.

(2) سورة آل عمران: 153.

(3) سورة الحديد: 23.

الحث على العمل:

قال عزوجل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ

---

(1) سورة الأنبياء: 73.
(2) سورة الأنعام: 135.
(3) سورة التوبة: 105.
(4) سورة المؤمنون: 51.
(5) سورة سبأ: 13.

نَقِيراًO[1].

وقال تعالى: Π وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماًO[2].

وقال سبحانه: Π فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَO[3].

من هدي السنة المطهرة

البساطة في العيش:

روي: أنه لما نزلت هذه الآية على النبي o: Π وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ % لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌO[4]، بكى النبي o بكاءً شديداً وبكت صحابته لبكائه، ولم يدروا ما نزل به جبرائيل A على رسول الله o من الوحي، ولم يستطع أحدٌ من صحابته أن يكلمه، وكان النبي o إذا رأى فاطمة ∃ فرح بها. فانطلق بعض أصحابه إلى باب بيتها فوجد بين يديها شعيراً وهي

---

(1) سورة النساء: 124.
(2) سورة طه: 112.
(3) سورة الأنبياء: 94.
(4) سورة الحجر: 43 - 44.

تطحن فيه، وتقول: Πوَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىO[1]، فسلم عليها وأخبرها بخبر النبي o وبكائه.

فنهضت والتفت بشملة لها خلقة، قد خيطت في اثني عشر مكاناً بسعف النخل، فلما خرجت نظر سلمان الفارسي إلى الشملة وبكى، وقال: واحزناه، إن بنات قيصر وكسرى لفي السندس والحرير، وابنة محمد o عليها شملة صوف خلقة قد خيطت في اثني عشر مكاناً!! فلما دخلت فاطمة ∃ على النبي o قالت: Σيا رسول الله، إن سلمان تعجب من لباسي، فو الذي بعثك بالحق، مالي ولعلي منذ خمس سنين إلا مسك كبشٍ نعلف عليها بالنهار بعيرنا، فإذا كان الليل افترشناه، وإن مرفقتنا لمن أدمٍ حشوها ليفٌP. فقال النبي o: Σيا سلمان، إن ابنتي لفي الخيل السوابقP[2].

وقال أمير المؤمنين A: Σلأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماًP[3].

وقال الإمام الصادق A: Σقال عيسى بن مريم A في خطبة قام بها في بني إسرائيل: أصبحت فيكم وإدامي

---

(1) سورة القصص: 60.
(2) بحار الأنوار: ج43 ص87- 88 ب4 ح9.
(3) نهج البلاغة، الرسائل: 45 من كتاب لـه A إلى عثمان بن حنيف الأنصاري.

الجوع، وطعامي ما تنبت الأرض للوحوش والأنعام، وسراجي القمر، وفراشي التراب، ووسادتي الحجر، ليس لي بيت يخرب، ولا مالٌ يتلف، ولا ولد يموت، ولا امرأة تحزن. أصبحت وليس لي شيء، وأمسيت وليس لي شيء، وأنا أغنى ولد آدمP[1].

وقال إسماعيل بن جابر: أتيت أبا عبد الله A وإذا هو في حائط له، بيده مسحاة وهو يفتح بها الماء، وعليه قميص شبه الكرابيس، كأنه مخيط عليه من ضيقهP[2].

الزهد:

قال رسول الله o: Σما اتخذ الله نبياً إلا زاهداًP[3].

وقال o: Σما يعبد الله بشيء مثل الزهد في الدنياP[4].

وقال الإمام أمير المؤمنين A: Σالعجز آفة، والصبر شجاعة، والزهد ثروة،والورع جُنة[5]، ونعم القرين

---

(1) معاني الأخبار: ص 252 باب معنى الزهد ح5.
(2) وسائل الشيعة: ج17 ص40 ب9 ح21926.
(3) مستدرك الوسائل: ج12 ص51 ب62 ح14.
(4) إرشاد القلوب: ج1 ص158 ب48 في فضيلة الفقر وحسن عاقبته.
(5) الجُنة بالضم: الوقاية.

الرضاP [1].

وقال الإمام الصادق A: Σجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنياP[2].

ذم الطمع:

قال رسول الله o: «إياكم واستشعار الطمع! فإنه يشوب القلب شدة الحرص، ويختم على القلوب بطابع حب الدنيا، وهو مفتاح كل سيئة، ورأس كل خطيئة، وسبب إحباط كل حسنةP[3].

وقال أمير المؤمنين A: Σما هدم الدين مثل البدع، ولا أفسد الرجال مثل الطمع. إياك والأماني! فإنها بضائع النوكىP [4].

وقال الإمام الكاظم A: Σالطمع سجية سيئةP[5].

وقال الإمام الباقر A: Σبئس العبد عبد له طمع

---

(1) نهج البلاغة، قصار الحكم: 4.
(2) الكافي: ج2 ص128 باب ذم الدنيا والزهد فيها ح2.
(3) مستدرك الوسائل: ج12 ص70 ب67 ح13539.
(4) كنز الفوائد: ج1 ص350 فصل من كلام أمير المؤمنين A.
(5) بحار الأنوار: ج69 ص199 ب105 ضمن ح27.

يقوده، وبئس العبد عبد له رغبة تذلهP [1].

العمل:

قال أمير المؤمنين A: Σالإخلاص خير العملP[2].

وقال A: Σقدموا الخير تغنموا، وأخلصوا أعمالكم تسعدواP[3].

وقال A: Σ أفضل العمل ما أريد به وجه اللهP[4].

وقال A: Σمن نصح في العمل نصحته المجازاةP[5].

وقال A: Σلا يدرك أحد رفعة الآخرة إلا بإخلاص العمل، وتقصير الأمل، ولزوم التقوىP[6].

---

(1) الكافي: ج2 ص320 باب الطمع ح2.
(2) غرر الحكم ودرر الكلم: ص155ق1 ب6 فـ4 الإخلاص في العمل وآثاره ح2893.
(3) غرر الحكم ودرر الكلم: ص155ق1 ب6 فـ4 الإخلاص في العمل وآثاره ح 2895.
(4) غرر الحكم ودرر الكلم: ص155ق1 ب6 فـ4 الإخلاص في العمل وآثاره ح 2901.
(5) نفس المصدر: ح2918.
(6) نفس المصدر: ح2921.

وقال A: Σتصفية العمل أشد من العملP[1].

(1) نفس المصدر: ح2903.

الفهرس

كلمة الناشر 5
قانون الاكتفاء والبساطة 10
العمل طريق الاكتفاء 11
البساطة في العيش 12
من سمات النجاح 14
مقومات الاكتفاء 14
خير أسوة 15
سيرة الأنبياء والأئمة % 19
العمل الدءوب 20
العمل في فترة الاستجمام 22
المسلمون بين الأمس واليوم 24
ابن سينا 32
طعم الحياة 39
الفرق بين الشخصيتين 46
الحسينية العامرة 47
الشكوى دائماً 48
استثمار الوقت 48
من هدي القرآن الحكيم 50
من هدي السنة المطهرة 52